

الإطناب في سورة البقرة (دراسة تحليلية) (Prolivity in Surat Al-Baqarah (An Analytical Study

د. عائشة محمد زين أحمد ممتاز

جامعة الجوف – المملكة العربية السعودية

جامعة ام درمان الاسلامية – كلية اللغة العربية

aishamumtaz474@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/03/30

تاريخ القبول: 2025/03/13

تاريخ الاستلام: 2024/12/19

ملخص:

لا شك أنّ كل أسلوب بلاغيّ جديرٌ بالنظر والدراسة ، فكل أسلوب له مقامه ومواضعه في تأدية المعاني ، فالمعاني تؤدي بطرق مختلفة، إن كان ذلك عن طريق الإيجاز أو المساواة أو الزيادة، والزيادة هذه من الأساليب المحمودّة لا على الإطلاق، فهي تُحمد في مواضع من كلام البشر وتُستكره في مواضع أخرى شأنها شأن غيرها من الأساليب.

فالإطناب من الأساليب المحمودّة المتمثلة في أساليب الفصحاء من العرب، وأساليب القرآن الكريم خاصة؛ ذلك أن القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب ووفق سننهم تحداهم بأن يأتوا ولو بسورة من مثله ، وما ذلك إلا لأنّ لغته قد فاقت لغتهم ببلاغتها رغم أنّهم أهل فصاحة وبلاغة ، لذلك أثرت الوقوف على الأسرار البلاغية لهذا الأسلوب في القرآن الكريم متمثلاً في سورة البقرة تحديداً كلمات مفتاحية: الإطناب – سورة البقرة.

Abstract: There is no doubt that every rhetorical style is worthy of consideration and study, as every style has its own position and place in conveying meanings. Meanings are conveyed in different ways, whether by brevity, equality, or increase. This increase is one of the praiseworthy styles, but not absolutely. It is praised in some places in human speech and disliked in other places, just like other styles Verbosity is one of the praiseworthy styles represented in the styles of the eloquent Arabs, and the styles of the Holy Qur'an in particular. This is because the Holy Qur'an, which was revealed in the language of the Arabs and according to their traditions, challenged them to produce even one surah like it. This is only because its language surpassed their language in its eloquence, despite the fact that they were people of eloquence and rhetoric. Therefore, I preferred to examine the rhetorical secrets of this style in the Holy Qur'an,

represented specifically in Surat Al-Baqarah.

1 المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.
وبعد

فالإطناب من الموضوعات المهمة في الدرس البلاغي، فهو لا يعني زيادة في اللفظ على المعنى لغير فائدة كما يفهم من حديث بعض القدامى عنه، وليس القصد منه إفهام الغبي الذي لا تصل المعاني إليه إلا عن طريق تلك الزيادة، بل القصد منه تأدية المعنى بهذا الأسلوب للوصول إلى غرض معين لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق هذه الزيادة المتعمدة المحمودة، إن كان ذلك بالإيضاح بعد الإبهام أو التكرار أو الاحتراس أو بتخصيص المعنى بعد ذكره ضمن العام أو العكس ، أو أيّ من طرقه التي تؤدي الفائدة المرجوة منها، ولا علاقة له بالغبي المتأخر الفهم، ذلك أنّ الغبي بعيد عن البلاغة وعن طرائقها .

فالإطناب إذن من الأساليب البلاغية التي تؤدي غرضاً معيناً يتطلبه الموقف والمقام المعين، لذلك فهو من الأساليب التي تقتضى من الدارسين البحث والتأمل ، ولا أعني أنّها من الموضوعات المهمة التي لم تجد حظاً من الدراسة والتحليل، فهو من الموضوعات التي درست بطرائق مختلفة، إن كان ذلك عن طريق تناول الموضوع مع الإيجاز في القرآن الكريم ، أو الإطناب في القرآن الكريم بصورة عامة ، أو بدراسة إحدى أنواع الإطناب في القرآن الكريم ، لكن لكلّ طريقته في الطرح والتناول.

فكل باحث يقف على زوايا تختلف عمّا وقف عليها الآخرون، وكلّ منهم يكمل ما فات على الآخر.

وقد اشتمل البحث على الآتي:

المقدمة : وفيها تمّ التعريف بأهمية الموضوع في الدرس البلاغي وهيكل البحث بصورة عامة.

التمهيد : تناول آراء القدماء في الإطناب والمقارنة بينه وبين الإيجاز، وأهمية كل منهما في مكانه.

دراسة نظرية للإطناب : وقد اشتملت على تفرعات علماء البلاغة للإطناب على اختلاف طرائقهم في التناول.

الجانب التطبيقي : واشتمل على قسمين :

القسم الأول : الإطناب بزيادة اللفظ على المعنى ، واشتمل على عدد من المطالب على النحو التالي :

المطلب الأول : الإيضاح بعد الإيهام .

المطلب الثاني : ذكر الخاص بعد العام .

المطلب الثالث: التكرار.

المطلب الرابع : الاحتراس

المطلب الخامس : التذييل

المطلب السادس : الاعتراض.

القسم الثاني : الإطناب بالبسط .

الخاتمة : واشتملت على النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

المراجع والمصادر : وقد رُتبت ترتيباً أبجدياً.

تمهيد :

بالرجوع إلى ما دار من حديث حول ماهية الإطناب في كلام العرب وأفضليته والترجيح بينه وبين الإيجاز نجد أن كثيراً منهم يفضل الإيجاز ويقدمه على الإطناب لمزية وفضيلة حاصلة فيه لا يشاركه الإطناب فيها؛ ذلك أنّ الإيجاز معنيٌّ به الخواص من الناس لرجاحة عقولهم وأنّ الإطناب مشترك فيه الخواص منهم والعوام لبعده فهمهم وتأخر معرفتهم.

ولم يقف الأمر عند حد المفاضلة هذه بل عدوا البلاغة إيجازاً ، حتى إن بعضهم ذهب إلى أبعد من هذا فجعل من السكوت بلاغة رغبة في الإيجاز وزهداً فيه .

فالإطناب عند هؤلاء إكثارٌ لا طائل من ورائه، وعلى البليغ أن يتجنبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فعلى اعتقادهم هذا نجد أن هنالك بونٌ شاسعٌ بين فهمهم للإطناب بالكيفية هذه وبين الفهم المعلوم عن الإطناب الذي هو زيادة معنيّة مقصودة، وإلا لما وجدنا له أثراً في الأساليب القرآنية.

فالقُرآن الكريم زاخرٌ بهذا النوع من الأساليب؛ إذ ليس القصد منه عوام الناس وأغبيائهم كما يزعمون بل القصد من ذلك توضيح بعض المعاني التي لا يتأتى توضيحها إلا بهذه الزيادة المتعمدة المحمودّة، والتي يشترك في القصد منها عوام الناس وخواصهم، والغبيّ منهم والفظن.

ومنهم من نحى منحى آخر فجعل البلاغة في أن تكون الألفاظ على أقدار المعاني، فلا إيجاز ولا إسهاب.

ومنهم من وضع كلا من الإيجاز والإطناب موضعه المنوط به، فكل منهما يحسن ويجود في مواضع، ويستكره في الأخرى، فما يؤديه المجاز في موضع معين لا يحلّ محلّه الإطناب بحال من الأحوال، وكذلك الإطناب. ولذا ذكر أبو هلال العسكري أنّ الإيجاز والإطناب هما أداتان بلاغيتان لا غنى عنهما في جميع أنواع الخطاب، ولكلّ منهما موضعه الذي يناسبه. فكما أن الإيجاز يُطلب حين يقتضي السياق الاختصار والوضوح، فإن الإطناب يكون مطلوباً حين يستلزم المقام التفصيل والإيضاح. ومن حاد عن هذه القاعدة فأسرف في الإطالة حيث يجب الاختصار، أو اختصر في موضع يقتضي التفصيل، فقد جانبه الصواب.

وقد نُقل عن جعفر بن يحيى إعجابه بالإيجاز، حيث قال: "إذا كان الإيجاز أبلى في التعبير، فإن الإكثار يكون عيباً، وإذا جاءت الكناية في موضع التفصيل، كان الإيجاز حينها تقصيراً".

ويُحكى أن يحيى بن خالد بن برمك طلب من كاتبين أن يكتبوا رسالة في موضوع واحد، فكتب أحدهما بإيجاز، بينما أطنب الآخر. فلما قرأ يحيى رسالة المختصر قال له: "لم أجد موضعاً لزيادة". ولما قرأ رسالة المطيل قال: "لم أجد موضعاً للنقصان".⁽¹⁾

وفي موضع آخر يوضح الفرق بين الإطناب والإسهاب، فيذكر أن الإطناب هو بسط الكلام لتحقيق مزيد من الفائدة، بينما الإسهاب هو الإطالة التي تقل فيها الفائدة. وبناءً على ذلك، فإن الإطناب يُعدّ من البلاغة؛ لأنه كالسير في طريق أطول يحمل زيادة في المعنى والفائدة، في حين أن الإسهاب يُعدّ عيباً، لأنه كالسير في طريق طويل دون ضرورة، مع جهل بالطريق الأقرب. فالكلام يُختصر ليُحفظ ويُبسّط ليُفهم.⁽²⁾

وهذا هو الأمر الذي ينبغي أن يُتبع في كل أسلوبٍ بلاغيٍّ يؤدي غرضاً معيناً لا تتأتى هذه التأدية بغيره، فليس كل إكثارٍ مذمومٍ وليس كل اختصارٍ محمود؛ إذ لكلٍ منهما منزلته التي لا تؤدّى إلاّ به.

دراسة نظرية للإطناب :

قبل البدء في الحديث عن الإطناب في سورة البقرة لابد من وقفةٍ سريعةٍ على تعريفه وتفريعاته المختلفة عند البلاغيين، حتى يتم الربط بين ما استخدم عند البلاغيين وبين ما هو واقع في هذه السورة المقصودة بالدراسة والتحليل .

فالإطناب لغةً يعني : المبالغة، يقال : أطنب في الشيء : إذا بالغ فيه، وأطنبت الإبل : إذا تبع بعضها بعضاً في السير، وأطنبت الريح إطناباً : إذا اشتدت في غبار(3).
وقيل : "الإطناب: البلاغة في المنطق في مدح أو ذم"⁽⁴⁾ .

وهو في اصطلاح البلاغيين : "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة"⁽⁵⁾.

فالذي يُلاحظ أنّ المعنى الاصطلاحي لا يختلف كثيراً عن المعنى اللغوي، ففي كلا التعريفين زيادة، وإن حُصّ الاصطلاحي بالفائدة ، أما اللغوي فليس شرطاً في زيادته الإفادة. كما في اشتداد الريح إذا صحبها الغبار.

وعلماء البلاغة في الإطناب وتقسيماته على فريقين :

فريق يجعله قسمين : أحدهما الذي يوجد في الجملة الواحدة من الكلام ، والآخر الذي يختص بالجملة. وعلى رأس هؤلاء ابن الأثير ومن حذا حذوه. وفريق آخر قسم الإطناب بصورة عامة إلى أقسام كثيرة بغض النظر عن الذي يأتي في الجملة الواحدة أو الذي يأتي في الجمل الكثيرة . ومن هؤلاء القزويني ومن سار على نهجه. ولنقف على طريقة الإطناب عند ابن الأثير، فهو يقسم الإطناب - كما ذكر - قسمين : وهي على النحو التالي :

القسم الأول : الذي يرد في الجملة الواحدة من الكلام :

وهذا يرد حقيقة، ومجازا

أما الحقيقة، فهي مثل قولهم: "رأيتُه بعيني" و"قبضته بيدي" وما شابه ذلك. قد يظن أحدًا ما أن هذه التعبيرات تحمل زيادة لا داعي لها، زاعمًا أن الرؤية لا تكون إلا بالعين، والقبض لا يكون إلا باليد. ولكن الواقع غير ذلك؛ فمثل هذه العبارات تُستخدم للتأكيد حين يكون الأمر عظيمًا وصعب المنال، فتأتي بهذه الصيغة لإبراز أهميته ودلالة على تحقيقه والوصول إليه، وعلى هذا قول البحري :

تأمل من خلال السجف وانظر... بعينك ما شربت ومن سقاني

تجد شمس الضحى تدنو بشمس ... إلي من الرحيق الخسرواني

ولما كان الحضور في هذا المجلس مما يعزّ وجوده، وكان الساقى فيه على هذه الصفة

من الحسن، قال: انظر بعينك.

ومنه أيضا قوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} (٦) .

فمساك الكلام أنّ الإنسان يقول لزوجته: (أنت عليّ كظهر أمي) ويقول لمملوكه: (يا

بني)، فضرب الله لذلك مثلاً، فقال: كيف تكون الزوجة أمّا ؟ وكيف يكون المملوك ابنا؟

والجمع بين الزوجة والأمومة، وبين العبودية والبنوة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين

في الجوف، وهذا تعظيم لما قالوه، وإنكار له، ولما كان الكلام في حال الإنكار، والتعظيم أتى

بذكر الجوف، ومعلوم أن القلب لا يكون إلا في الجوف، وهو تام، لكن في ذكر الجوف زيادة تصوير للمعنى المقصود؛ لأنه إذا سمعه المخاطب به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين، فكان ذلك أسرع إلى إنكاره.

أما ما جاء منه على سبيل المجاز في قوله تعالى : {فَإِنَّهَا لَا تَعْلَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْلَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (7) .

ففائدة ذكر (الصُّدُور) ههنا أنه قد تعورف، وعُلم أن العى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تُصاب الحدقة بما يطمس نورها، واستعماله في القلب تشبيه، وتمثيل، فلما أُريد إثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العى إلى القلوب حقيقة، ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف، ليتقرر أن مكان العى إنما هو القلوب، لا الأبصار.

القسم الثاني : المختص بالجمل :

وهذا عنده يأتي على أنواع ثلاثة، وهي على النحو التالي :

النوع الأول: هو أن يُورد المعنى مع تضمين عدة جوانب مترابطة، بحيث ينفرد كل جانب بميزة خاصة تميزه عن غيره، وذلك كقول أبي تمام :

قطعت إلى الزابيين هباته ... والثاث مأمول السحاب المسبل

من منة مشهورة وصنيعة ... بكر وإحسان أغر محجل

في قوله: (منة مشهورة، وصنيعة بكر، وإحسان أغر محجل)، تتداخل المعاني بين المنّة والصنيعة والإحسان لتقاربها، ومع ذلك لا يُعد ذلك تكراراً؛ إذ لو اقتصر على ذكر "منة وصنيعة وإحسان" فقط، لاحتل التكرار، لكنه أضاف لكل منها وصفاً خاصاً ميزها عن الأخرى، فأخرجها بذلك عن دائرة التكرار.

النوع الثاني : النفي والإثبات :

هو أسلوب يُطرح فيه المعنى أولاً بصيغة النفي ثم يُعاد ذكره بصيغة الإثبات، أو بالعكس، على أن تتضمن إحدى الصيغتين تفصيلاً أو إضافةً تُغني عن مجرد التكرار. ويُقصد من هذا الأسلوب تعزيز المعنى المراد وإبرازه بقوة أكبر.

فمما جاء منه قوله تعالى: {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ، إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}(8).

يحمل هذا النوع من التعبير فائدة عظيمة، حيث جاء المعنى في الآية الأولى بصيغة النفي، ثم أُعيد تأكيده في الآية الثانية بصيغة الإثبات. ورغم توافق المعنى بين الآيتين، إلا أن إضافة قوله: (وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون) في الثانية أكسبت النص عمقاً جديداً، مما أخرجه عن كونه مجرد تكرار.

النوع الثالث: أن يذكر المعنى الواحد تاماً لا يحتاج إلى زيادة، ثم يُضرب له مثال من التشبيه:

من ذلك قول البحري:

ذات حسن لو استزادت من الحس ... ن إليه لما أصابت مزيداً

فهي كالشمس بهجة، والقضيب اللدن قداً، والريم طرفاً وجيداً

فالبيت الأول يكفي وحده لتحقيق الغاية في الحسن؛ إذ إن قوله: (لو استزادت لما أصابت مزيداً) يشمل كل ما يمكن تصوره من الكمال والجمال، غير أن إضافة التشبيه تمنح النص ميزة أخرى، تتمثل في تقديم صورة حية وخيال مؤثر يثري تجربة السامع، وهو ما لا يتوفر في العبارة الأولى وحدها.

ويوجد نوع رابع؛ يتميز بتحقيق الغرض المقصود من نص ككتاب أو خطبة أو قصيدة، بحيث يستوعب جميع معانيه بأسلوب شامل، ويُعد هذا النوع من أكثر الأساليب تعقيداً وأضيقها مدخلاً، حيث يتفرع إلى طرق متعددة في التعبير عن المعاني، ويتفاوت الكتاب والشعراء فيه تفاوتاً كبيراً. وهو نادر الوجود، إذ قلما يُبدع الفكر في هذا المجال إبداعاً متقناً. يمكن تشبيهه بعلاقة الإجمال بالتفصيل، حيث يوازن بين الإيجاز والإطناب. ومن أمثلته وصف بستان متنوع الثمار، حيث يُعرض بإيجاز يكفي للإشارة إلى جماله، أو بإطناب يفصل أوصاف فواكه البستان المختلفة بطريقة تزيد النص ثراءً وجمالاً دون إفراط أو إهمال للفائدة⁽⁹⁾.

فابن الأثير في تناوله للإطناب لم يستوف ضروره جميعها كما فعل غيره من العلماء ، وإنما وقف على بعضها ، لكن بطريقة مختلفة .

أما التقسيم الآخر للإطناب فهو يختلف عما ذهب إليه ابن الأثير هذا، فالإطناب زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، وهذه الزيادة قد تكون توضيحاً لمهم، وهو ما يسمى بالإيضاح بعد الإيهام كما في قوله تعالى : {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} (10)، فأبهم الأمر أولاً ثم بيّنه بقوله : (إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين)، وذلك أن الأمر إذا أبهم تطلعت النفس إلى كشف خفاياه، فإذا فسّر تمكّن في النفس ووجد موقعا لم يكن إذا ألقى دفعةً واحدة.

وقد يكون الإطناب بذكر الخاص بعد العام أو بذكر العام بعد الخاص، وذلك لأهمية ذكره مرة ثانية بعد أن ذكر في المرة الأولى. فمثال الأول قوله تعالى : {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (11)، فذكر سبحانه أمراً عاماً وهو الدعوة إلى الخير، ثم عقّب بعد ذلك بتخصيص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما داخلان ضمن الدعوة إلى الخير؛ وذلك إظهاراً لشرفهما.

ومثال الثاني قوله تعالى : {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} (12)، فالتعميم بعد التخصيص هنا أفاد تأكيد الدعاء وتكريره لمن ذكروا سابقاً.

ومن طرائقه الاعتراض بين جملتين متصلتي المعنى، وهو (أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين في معناهما بجملة أو أكثر لا محلّ لها من الإعراب لنكتة بلاغية سوى دفع الإيهام) (13) .

وللاعتراض دواعٍ كثيرة ، من ذلك :

التنزيه والتعظيم ، وذلك كقوله تعالى : {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ} (14) .

ومنها الدعاء كقوله تعالى : {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ...} (15) .

ومنها التقرير في نفس السامع والاستعطاف والتبرك، إلى غير ذلك من الأغراض التي تترتب على وجود جملة اعتراضية بين جملتين متصلتي المعنى.

وقد يكون الإطناب بالاحتراس، وهو إتيان المتكلم بمعنى يتوجه عليه دخل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه منه . ومن أمثله قول النبي صلى الله عليه وسلم على لسان إحدى النسوة في حديث أم زرع "زَوْجِي الْمَسُّ مَسُّ أَرْزَبٍ، وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْزَبٍ، وَأَنَا أَغْلِبُهُ وَالنَّاسَ يَغْلِبُ" (16)، ففي قولها: "والناس يغلب" يكمن احتراس بديع؛ إذ لو توقفت عند قولها: "وأغلبه"، لربما قيل: إن الرجل الذي تغلبه امرأة ضعيف مغلوب. لذا احتاطت لذلك بقولها: "والناس يغلب"، مما أضفى توافقاً بين أجزاء الكلام بجملة تضمن معنى الاحتراس، فتجنب بذلك نقصان معنى المدح الذي قد يطرأ عليه. وهكذا تحقق في القول احتراس أدمج بمهارة في موضع إيغال⁽¹⁷⁾.

وقد يكون بالتذييل، وهذا الأسلوب يتمثل في تكرار الألفاظ المترادفة على المعنى نفسه، ليظهر بوضوح لمن لم يفهمه ويزداد توكيده لمن قد فهمه بالفعل، وهو على عكس الإشارة والتعريض. وينبغي استخدامه في المواطن العامة والمواقف الحافلة، حيث يجتمع من الناس من يبطل فهمهم، ومن يبتعد ذهنهم، ومن يمتازون بسرعة البديهة وجودة التفكير. فعندما تتكرر الألفاظ حول معنى واحد، يترسخ المعنى لدى الأذهان السريعة، ويتضح للعقول المتناقلة⁽¹⁸⁾. إلى غير ذلك من أنواع الإطناب .

والذي نسير عليه في تقسيم الإطناب في سورة البقرة هو ما ذهب إليه القزويني ومن حذا حذوه ، وإن كان هنالك تداخل في ما ذكره ابن الأثير وغيره من العلماء الذين فرّعوا الإطناب إلى فروع كثيرة بغض النظر عن الذي يكون في الجملة الواحدة أو الجمل الكثيرة من الكلام. وذلك لأن معظم هذه الأنواع واقعة في هذه السورة ، كذلك نقف على ما يُسمّى الإطناب بالبسط ، وهو الذي يُعنى ببسط الألفاظ ، وهو وارد في هذه السورة .

الجانب التطبيقي :

قسم بعض البلاغيين الإطناب إلى قسمين : إطناب بالزيادة وإطناب بالبسط.

القسم الأول الإطناب بالزيادة :

وهذا النوع تكون الألفاظ فيه زائدة على المعاني لغرض بلاغي مُراد، وتحت هذا مطالب عديدة :

المطلب الأول : الإيضاح بعد الإيهام :

عادة ما يُؤتى بالكلام مهمماً في باب البلاغة ثم مُوضحاً بعد ذلك الإيهام لنكتة يراها المتحدث ، فالأمر إذا أُهمهم تطلعت النفس إلى كشف خفاياه وتشوّقت إلى معرفه ما ورائه، فإذا ورد البيان بعد الإيهام وبعد التحريك له وجد موقعا لا يكون إذا لم يتقدم ما يحرك.

وبَيّن القزويني أنّ الغرض من تقديم المعنى بصورتين مختلفتين هو ترسيخه بشكل أعمق في النفس، إذ عندما يُطرح المعنى في البداية بشكل موجز وغامض، تتشوق نفس السامع لمعرفة تفاصيله وإيضاحه، فتكون متطلعة لما سيأتي بعده، فإذا قُدِّم بعد ذلك بوضوح وتفصيل، ترسخ فيه بشكل أكبر وازداد شعور السامع به عمقاً. أو قد يكون الهدف تعزيز اللذة الناجمة عن المعرفة، لأن الوصول إلى المعرفة الكاملة دفعة واحدة لا يترك أثراً من الشوق، بينما حين يتكشف المعنى تدريجياً، يشعر السامع بلذة العلم بما أدرك وألم حرمانه مما لم يُدرك، مما يولد لديه شوقاً، ثم تزداد اللذة عند اكتمال المعرفة، إذ إن اللذة التي تأتي بعد شوقٍ وألم تكون أقوى من تلك التي تأتي دون ذلك. وقد يُستخدم هذا الأسلوب أيضاً للتفخيم وتعظيم الأمر في نفس السامع (19).

وإيضاح بعد الإيهام يأتي بطرائق عدة ، من تلك الطرق التفصيل بعد الإجمال ، والإجمال بعد التفصيل، والتوشيع، وغير ذلك من الطرائق التي تعطيك المعنى مهمماً ثم موضحاً.

فمما ورد منه في هذه السورة قوله تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(20).

ووجه الإيضاح بعد الإبهام ههنا في قوله : (القواعد من البيت)، حيث أبهم القواعد أولاً ثم وضحها بأنها قواعد البيت من غير إضافة. وضّح الزمخشري لماذا لم يُقل "قواعد البيت"، وما الفرق بين العبارتين؟ فذكر أن في إبهام "القواعد" ثم تبينها بعد ذلك فيه ما لا تحققه الإضافة؛ إذ إن الإيضاح بعد الإبهام يُضفي تفخيماً وتعظيماً على شأن ما يتم توضيحه(21).

ومن طرائقه أيضاً في هذه السورة الإيضاح بالإجمال بعد التفصيل وذلك لنكتة بلاغية مرادة ، ورد من ذلك قوله تعالى : (.....فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ)(22).

والذي يقف عند هذه الآية في قوله تعالى : (تلك عشرة كاملة) يتساءل ، فما وجه تأكيده - سبحانه - بكمال العشرة مع العلم بأن مجموع الثلاثة مع السبعة هو العشرة؟

ولتبين ذلك ذكر العلماء وجوهاً كثيرة ، من هذه الوجوه :

أولاً: أن الواو في قوله تعالى: {وسبعة إذا رجعتن} ليست دليلاً قاطعاً على الجمع، إذ قد تأتي بمعنى "أو"، كما في قولهم: "جالس الحسن وابن سيرين"، أي جالس هذا أو ذاك. ووفق هذا المعنى، ذكر العدد الكامل، أي العشرة، جاء لدفع هذا اللبس.

ثانياً: عادةً ما يكون البديل أقل قيمة من المبدل، كما هو الحال في التيمم عند فقد الماء. وهنا بيّن الله تعالى أن هذا البديل ليس كذلك، بل هو كامل ويعادل المبدل، ليطمئن فاقد الهدي الذي يتحمل عبء الصوم على الأجر الكامل الموعود من الله. وذكر العشرة هنا يؤكد ذلك؛ إذ لو اكتفى بقوله: "كاملة"، لأُتيح احتمال

أن يُقصد الثلاثة وحدها أو السبعة وحدها، فجاء ذكر العشرة لتأكيد تمام العدد.

ثالثاً: التوكيد أسلوب شائع في اللغة العربية، وتكمن فائدته في أن التعبير بعبارات متعددة يقلل احتمالية السهو والنسيان مقارنةً بعبارة واحدة. إذ يتضمن هذا الأسلوب فوائد عديدة لا يجوز إهمالها. وجاء هذا التوكيد هنا ليشير إلى أن الالتزام بالعدد المحدد في الصيام من الأمور الضرورية التي لا يجوز التفريط فيها⁽²³⁾.

ومذهب العرب إذا جمعوا عددين أن يجملوهما، ورد ذلك في كثير من أشعارهم، قال النابغة :

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا ... لَسْتُ أَعَوِّمُ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ

وقال الأعشى :

ثَلَاثٌ بِالْغَدَاةِ فَهِيَ حَسْبِي ... وَسِتٌّ حِينَ يُدْرِكُنِي الْعِشَاءُ
فَذَلِكَ تِسْعَةٌ فِي الْيَوْمِ رَبِّي ... وَشُرْبُ الْمَرْءِ فَوْقَ الرَّبِّ دَاءُ

وقال الفرزدق:

ثَلَاثٌ وَاثْنَتَانِ وَهْنٌ خَمْسٌ ... وَسَادِسَةٌ تَمِيلُ إِلَى سَمَامِ

ومن طرائقه التفصيل بعد الإجمال كما قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ⁽²⁴⁾، فهنا قدّم سبحانه نعمه على بني إسرائيل إجمالاً، ثم بيّن بعد ذلك أقسام تلك النعم على سبيل التفصيل، ليكون ذلك أعظم في التذكير وأعظم في الحجة، فكأنه قال: اذكروا نعمتي⁽²⁵⁾.

المطلب الثاني : ذكر الخاص بعد العام :

كثيراً ما يُذكر الخاص بعد ذكر العام مع أنّه من جنسه، ولو وقف الكلام عند ذكر العام فقط لكان ذلك كافياً، ولكن لما كان في ذكر الخاص من خصوصية ومزيد اهتمام

وتقرير حكم معين ؛ وجب إفراده بالذكر بعد إدراجه ضمن العام ؛ وذلك تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات .

والبلاغيون في حديثهم عن هذا النوع من الإطناب يركزون على نماذج بعينها، سواءً أكان ذلك في سورة البقرة أم في غيرها، مع أن هنالك نماذج كثيرة في القرآن الكريم وفي سورة البقرة على وجه الخصوص، تمثل هذا النوع وتوضحه.

ومن النماذج المشهورة في هذا النوع من سورة البقرة قوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} (26)

ففي هذه الآية ذكرت الصلوات إجمالاً ثم خُصَّت الوسطى على وجه التحديد، ولسائل أن يسأل لماذا خُصَّت هذه الصلاة بالإفراد دون غيرها، مع أن الإنسان مأمورٌ بالمحافظة عليها جميعاً؟

ولتبين ذلك يُقال إنَّ الصلاة الوسطى مختلفٌ فيها بين العلماء على أقوال : قال قوم: إن المقصود بها صلاة الظهر لأنها أشقُّ صلاةٍ عليهم بالمدينة، وكانوا أهل شغلٍ، وكانت تأتيمهم الظهر وقد أتعبتهم أعمالهم، وربما كانوا في إكمال أعمالهم. وقال قومٌ : هي العصر لأنه وقت شغل وعمل، وقال بعضهم: الصبح، لأن الصبح وقت نوم في الصيف، ووقت تطلُّب الدفء في الشتاء ، ومنهم من عدها صلاة العشاء لأنها أثقل صلاة على المنافقين (27) .

وفي تسميتها بالوسطى وجوه : الأول : لأنها أوسط الصلوات الخمس محلاً ، لأنها بين صلاتي ليل وصلاتي نهار. وعلى هذا يكون المقصود صلاة الصبح. الثاني : لأنها أوسط الصلاة عدداً ، لأن أكثرهن أربع وأقلهن ركعتان. فتوسط العدد معنيٌّ به صلاة المغرب .

الثالث: لأنها أفضل الصلوات ووسط الشيء ووسطاه أفضله ، وتكون الوسطى بمعنى الفضلى (28).

وأشهر الأقوال في هذا كله أنها صلاة العصر على ما ذهب إليه أكثرهم.

وأياً كان المقصود من الصلاة الوسطى في هذه الآية، فليست تخصيصها بالذكر بعد ذكر الصلوات جميعها إجمالاً إلا تشريفاً لها دون غيرها من الصلوات، كما أشار إلى ذلك معظم المفسرين، وإن كانت المحافظة على الصلوات جميعها أمراً لا جدال فيه.

ولبعض العلماء رأيٌ مغاير لما ذهب إليه أكثر المفسرين، وهو أنها إحدى الصلوات الخمس دون تعيين، فقد أهتمها الله تعالى تشجيعاً للعباد على المحافظة على أداء جميع الصلوات، كما أخفى ليلة القدر في شهر رمضان، وأخفى ساعة استجابة الدعاء في يوم الجمعة، وأخفى اسمه الأعظم بين أسمائه كلها؛ ليحرصوا على الدعاء بكل أسمائه، وأخفى وقت الموت في مختلف الأوقات ليبقى الإنسان خائفاً من الموت في كل حين، فيستمر في التوبة والاستعداد في جميع الأوقات⁽²⁹⁾

وعلى كل الآراء فهي زيادة معنية مقصودة، والله أعلم بمراده منها. ومما ذكر فيه الخاص بعد ذكر العام قوله تعالى : {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} ⁽³⁰⁾.

وهذه الآية كسابقتها فيها زيادة بتخصيص بعض المفردات بعد ذكرها على وجه العموم، لكنها زيادة متعينة وواضحة الدلالة من خلال سياق الآية، وهي أفراد جبريل وميكائيل بالذكر وقد مضى ذكرهما في جملة أسماء الملائكة.

والسبب في ذلك أن اليهود عندما قالوا: "جبريل عدونا وميكائيل ولينا"، وزعموا كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم بسبب أن جبريل هو الذي صاحبه، أخبرهم الله أن من كان عدواً لجبريل، فإن الله عدوه أيضاً، وأنه من الكافرين. فصَرَخَ الله تعالى باسم جبريل وميكائيل على وجه التحديد، ليقطع على اليهود طريق التأويل، فيقولون: "إنما قال الله من كان عدواً لله وملائكته ورسله"، ولم تكن نحن أعداء لله ولا لملائكته ورسله، لأن "الملائكة" كلمة عامة يمكن أن تشمل جبريل وميكائيل وغيرهما. وكذلك عندما قال: "ورُسُلِهِ"، فإن هذا لا يشمل محمد صلى الله عليه وسلم. لذلك، نصَّ الله على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم، ليفضح بذلك تلاعبهم ويقطع حججهم عن ضعفاء العقول، ويحسم تأويلاتهم بين المنافقين⁽³¹⁾.

ومنه قوله تعالى : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ³²، في هذه الآية، نجد استفهامًا تعجبياً من الملائكة عندما أخبرهم الله سبحانه وتعالى أنه جاعل في الأرض خليفة. فهم يعبرون عن تعجبهم لأنهم يعتقدون بأنهم أحق بالاستخلاف لكونهم يسبحون الله تعالى ويقدمونه، ويظنون أن من كان شأنه الفساد وسفك الدماء لا يصلح للتعظيم.

هذا التعجب يعكس وعي الملائكة العميق، إما من خلال تجارب سابقة على الأرض أو من بصيرتهم التي تكشف لهم عن طبيعة الإنسان. هم يتوقعون، استناداً إلى فطرتهم أو إلهامهم، أن البشر سيفسدون في الأرض ويسفكون الدماء. ومع ذلك، فإن طبيعتهم النقية، التي لا ترى إلا الخير والسلام، تجعلهم يعتقدون أن الهدف الأسى للوجود هو تسبيح الله وتقديسه، وهو السبب الأول في خلقهم. فعلاً، هم يسبحون ويقدمون الله دون انقطاع. لكنهم لم يدركوا بعد حكمة مشيئة الله في خلق الأرض وعمارتها، وفي تطوير الحياة وتنويعها، وفي تمكين البشر من تحقيق إرادة الله في إصلاح الكون. قد يخطئ البشر أحياناً ويُفسدون، ولكن وراء ذلك الشر الظاهر يكمن خير أعظم وأشمل، يتمثل في الاستمرارية في النمو والتطور، في التغيير والبناء المستمر، وفي السعي الدائم نحو التقدم والابتكار. وعندما حانت اللحظة المناسبة، جاءهم الجواب من العليم بكل شيء: {إني أعلم ما لا تعلمون}.

وقد عطف سفك الدماء هنا على الفساد مع أنه داخل في جنسه؛ لأن سفك الدماء أشد مفسدة من غيره.

ومنه قوله تعالى : {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} (33) .

الإطنباب في قوله: "يا أولي الأبواب" يأتي لأن الأمر بالتقوى ليس مقتصرًا على أولي الأبواب فقط، ولا يُوجه إليهم دون غيرهم في سياق الحث عليها؛ إذ إن كل إنسان مأمور بها. ولكن

ذكر الخاص بعد العام هنا يُستخدم للتنبيه على تفضيل الخاص على العام، وإبراز فضله وامتيازهِ. إذ يتفاضل الناس بالألباب، وهي العقول(34)

وكما يكون الإطناب بعطف الخاص على العام تشريفاً له وتعظيماً ، كذلك يكون بعطف العام على الخاص، وهذا النوع لم يولهِ علماء البلاغة عناية خاصة كما فعلوا في الأول ، وإنما اكتفى بعضهم بالإشارة إليه فقط دون تفصيل أو تمثيل .

ورد ذلك قوله تعالى : {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}(35).

قوله :"(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}" بعد قوله {وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} هو من باب ذكر العام بعد الخاص لإفادة الشمول"(36)

المطلب الثالث : التكرار :

التكرار ينقسم إلى نوعين: الأول يكون فيه اللفظ مُكرراً بنصه، والآخر يعاد فيه المعنى دون إعادة اللفظ. في كلٍ من هذين النوعين، توجد فائدة، فكل زيادة في اللفظ تُرافقها زيادة في المعنى. وإذا كانت هذه الزيادة مقصودة ومحمودة في كلام البلغاء من العرب، فما بالك بكلام الله سبحانه وتعالى.

وقد ذكر السيوطي للتكرير فوائد عدة، من هذه الفوائد :

التكرار في الكلام يسهم في تأكيده وتثبيتهِ في الأذهان، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى السبب وراء تكرار الأقاصيص والإنذارات في كتابه بقوله : {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}(37) .

ومن بين تلك الفوائد، زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة، مما يساعد على استقبال الكلام بكامل القبول، ومنه قوله تعالى : {وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ... } (38) ، فإنَّه كرر النداء لذلك .

ومن الفوائد أيضًا التلطيف وتجديد العهد لتجنب نسيان الكلام إذا طال. كما يمكن أن يقع الفصل بين التكرار، أو يكون للتأكيد على تعدد المتعلق، بحيث يكون التكرار الثاني متعلقًا بشيء مختلف عن الأول. وهذا يُعرف بالترديد⁽³⁹⁾.

وقد جاء في سورة البقرة من التكرار الكثير وإن اختلفت طرائقه ، من ذلك قوله تعالى :
{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ، وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاحْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}{⁽⁴⁰⁾.

في هذه الآية تكرر قوله تعالى : {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام}
مرتان ، وذكرت هذه التولية قبل ذلك في قوله تعالى : {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلْنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً نَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}
(⁴¹) ، فما الفائدة في تكرير أمر الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يولي

وجهه شطر المسجد الحرام ثلاث مرات؟

للعلماء في تفسير هذا التكرار أقوال :

الأول: أن الأحوال التي تشير إليها الآيات هي ثلاثة؛ أولها: أن يكون الإنسان في المسجد
الحرام، ثانيها: أن يخرج من المسجد الحرام إلى المدينة، وثالثها: أن يخرج من المدينة إلى
أقطار الأرض. فتُحمل الآية الأولى على الحال الأولى، والآية الثانية على الثانية، والثالثة
على الثالثة، لأن بعضها قد يتوهم أن القرب له حرمة لا توجد في البعد، ولإزالة هذا الوهم
كرر الله تعالى هذه الآيات.

والوجه الثاني: أن الله تعالى أعاد ذلك ثلاث مرات؛ لأن كل مرة تضمنت فائدة جديدة.
ففي المرة الأولى بين أن أهل الكتاب يعلمون أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وموضوع
هذه القبلة حق، لأنهم شهدوا ذلك في التوراة والإنجيل. وفي المرة الثانية بين أن الله

سبحانه يشهد بذلك الحق، وشهادته تختلف عن علم أهل الكتاب، إذ هي شهادة إلهية. أما في المرة الثالثة، فقد بين أن ذلك جاء لئلا يكون للناس حجة عليكم. وحيث اختلفت الفوائد في كل مرة، كان من المناسب إعادة الآيات لتحقيق هذه الفوائد المتنوعة⁽⁴²⁾. والفائدة المرادة من التكرار على التفسير الأول تأكيد الأمر لهم بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض .

وعلى كلا التفسيرين ففي التكرار ههنا تأكيد لأمر القبلة ليثبت الناس عليها ويعزموا ويجدوا ، مع تقرير فائدة خاصة لكل حالة من الحالات الثلاث؛ إذ المراد من التولية في المرة الأولى غير المراد منها في الثانية ، وهكذا الثالثة .

وقيل: إن الله تعالى كرّر هذا الحكم لتعدد علله، إذ ذكر للتحويل ثلاث علل: الأولى: هي ابتغاء مرضاة الله، والثانية: هي جريان العادة الإلهية بأن يولي كل أهل ملة وصاحب دعوة جهة يتفردون بها، والثالثة: هي دفع حجج المخالفين. وقد قرن الله سبحانه بكل علة من هذه العلل المعلول الذي يترتب عليها⁽⁴³⁾

ومنه قوله تعالى : {قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَیْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}{⁽⁴⁴⁾ } .

في هذه الآية، يوجد إطناب من عدة أوجه. أولاً، يتكرر الويل للذين يتقولون على الله سبحانه وتعالى، فيكتبون الكتاب ويدعون أنه من عنده سبحانه. ولم يكتفِ الله بذكر تحريفهم وكتابتهم للكتاب فقط، بل أضاف كلمة (أيديهم)، رغم أن الكتابة لا تكون إلا باليد. فقد فعلوا فعلتهم المنكرة هذه بهدف الحصول على ثمنٍ قليل وعرض زائل من ملاذ الدنيا، فجعلوا باطلهم هذا وسيلة لصيد الناس. فظلموهم من خلال تلبيس دينهم عليهم، وأخذ أموالهم ظلماً وبغير وجه حق. لذلك، كرر الله سبحانه وتعالى الويل لهم توعداً وتعظيماً لصنيعهم، مؤكداً أن العذاب واقع بهم لا محالة.

كذلك، لم يقتصر الله -سبحانه- في قوله: (يكتبون الكتاب بأيديهم) على ذكر الكتابة فقط، بل أضافها إلى الأيدي، رغم أن الكتابة لا تكون إلا بها. وهذا، كما يرى المفسرون،

يُبين جرمهم ويثبت مجاهرتهم، ولتحقيق مباشرتهم ما حرفوه بأنفسهم، مما يزيد من تقبيح فعلهم.

واستعمال مثل هذا الأسلوب كثير وشائع في القرآن الكريم وكلام العرب، قال تعالى :
 {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ
 اللَّهِ عَظِيمٌ} (45)
 ومنه قول البحري :

تأمل من خلال السجف وانظر ** بعينك ما شربت ومن سقاني
 تجد شمس الضحى تدنو بشمس ** إلي من الرحيق الخسرواني

كذلك هنالك تكرير لجملة : (قلنا اهبطوا) في قوله تعالى : {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
 لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ
 إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (46) .

ففي قوله تعالى : (قلنا اهبطوا) يرى ابن عاشور أنَّ التكرير احتمل أن يكون لأجل ربط
 النظم في الآية القرآنية من غير أن يكون هنالك تكرير للمعنى، إذ إنه قد فصل بين متعلق
 القول في الموضعين ما اعترض من قوله تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه
 هو التواب الرحيم)، فإنه لو عَقَّب ذلك بقوله : (فإما يأتينكم مني هدى) لم يرتبط كمال
 الارتباط ولتوهم السامع أنه خطاب للمؤمنين على عادة القرآن في التفنن في الأساليب،
 فلأجل ذلك أُعيد قوله : (قلنا اهبطوا) ولم يعطف على القول الأول، لأنَّ بينهما شبه كمال
 الاتصال وذلك لتنزيل الثاني من الأول منزلة التوكيد اللفظي، ثم بنى على الأول قوله : (فإما
 يأتينكم مني هدى، وهو مغاير لما بنى عليه قوله : (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو،
 ليحصل شيء من تجدد فائدة في الكلام لا ليكون إعادة اهبطوا مجرد توكيد.

وقيل هو أمرٌ ثانٍ بالهبوط ، بأنَّ أهبط آدم من الجنة إلى السماء الدنيا بالأمر الأول ،
 ثم أهبط من السماء الدنيا إلى الأرض ، فتكون إعادة قلنا اهبطوا للتأكيد على اختلاف
 زمن القولين والهبوط. وهو تأويل يفيد أنَّ المراحل والمسافات لا عبرة بها عند المسافر.

والأولى عنده الوجه الثاني وذلك حتى لا يظن آدم عليه السلام أنّ توبة الله عليه ورضاه عنه عند مبادرته بالتوبة عقب الأمر بالهبوط قد أوجبت العفو عنه من الهبوط من الجنة، فأعاد له الأمر بالهبوط بعد قبول توبته ليعلم أنّ ذلك كائن لا محالة ، لأنّه مراد الله تعالى وطور من الأطوار التي أرادها من جعله خليفةً في الأرض وهو ما أخبر به الملائكة⁽⁴⁷⁾.

ومن التكرار قوله تعالى : {وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} (48) .
وذكر الرازي أنّه قد يُقال: لا فرق بين قوله: {فأمسكوهن بمعروف} وبين قوله: {ولا تمسكوهن ضراراً}، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده، فما فائدة التكرار؟ وأجاب عن ذلك بما حاصله: أن الأمر لا يفيد إلا في الحال فقط، ولا يشمل جميع الأوقات، بينما النهي يتناول كل الأوقات. فقد يمسك الرجل زوجته بمعروف في اللحظة الراهنة، لكن قد يكون في قلبه نيّة مضارّتها في المستقبل. فلما قال تعالى: {ولا تمسكوهن ضراراً}، تم دفع الشبهات وزالت الاحتمالات⁽⁴⁹⁾.

المطلب الرابع : الاحتراس :

هو فن دقيق، لا يدركه إلا من يمتلكون فهماً عميقاً وعقولاً راجحة، ولا يلجأ إليه إلا لهدف مقصود. هناك تشابه بين هذا الفن وبين التتميم والتكميل، حيث يعتبره البعض شيئاً واحداً، بينما يعتبره آخرون نوعاً من التتميم. لكل من هذه الأساليب الثلاثة مقامٌ مميزٌ بها.

ويوجد تشابه بين الاحتراس وبين التتميم والتكميل؛ فالاحتراس يستخدم عندما يكون هناك احتمال لدخل أو لتوضيح توهم معين، على الرغم من أن المعنى يكون كاملاً ومتقناً من قبل. أما التكميل، فيكون المعنى فيه صحيحاً وكاملاً، ولكنه يأتي بزيادة تزيد من جماله، إما بفن زائد أو بمعنى إضافي.

أما التتميم فيأتي ليملاً أي نقص في المعنى والوزن معاً. ومن العلماء من يطلق عليه استقصاء، لأنه يتناول المعنى الكامل بشكل شامل، ويستقصي جميع جوانبه وملابساته وأسبابه، حتى لا يترك أي شيء لأحد مما قد يثير خواطرهم. والاحتراس من أكثر ضروب الإطناب استعمالاً في كلام العرب وأشعارهم ، تقول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي ** على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل أخي ولكن ** أسلي النفس عنه بالتأسي

فالخنساء هنا تخيلت أن قائلاً قال لها : لقد ساويت أخاك بالهالكين من إخوان الناس ، فكيف أفرطت في الجزع عليه دونهم، وذلك لذكرها كثرة الباكين، فاحترست من ذلك بقولها : (وما يبكون مثل أخي...) (50).

أما الاحتراس في القرآن في سورة البقرة فقد ورد منه قوله تعالى : {أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (51)، فهذا المثال ضُرب للذي يعمل أعمالاً صالحة لا يبتغي بها وجه الله تعالى، حتى إذا جاء يوم القيامة وجدها محبطة، فيتحسر عند ذلك كحسرة من كانت له جنة في الدنيا بهذا الحسن، فافتقدها وهو في أشد الحاجة إليها، وذلك بسبب كبره وضعف ذريته وحاجتهم إليه .

وهي مقارنة عجيبة؛ ذلك أن الحسرة والندم لا يكونان إلا عند افتقاد الأشياء العظيمة التي تُسلب من الإنسان وهو في أشد الحاجة إليها، وربما لا يكون الإنسان مدركاً لقيمتها طالما أنه عائش في كنفها.

وفي المثل المضروب هنا استقصاء للمعنى من جميع جوانبه حتى إنه لم يبق لأحد فيه بقية ، فالاستقصاء هنا محمود مطلوب كما الإيجاز في مواضعه محمود . ولتوضيح ذلك يقال: إنَّ الاختصار على ذكر لفظ "جنة" كان كافياً، لكن الله تعالى لم يقتصر عليه، بل فسّره بذكر أنها من نخيل وأعناب، وهي من أشرف

الأشجار عند العرب. بذلك بيّن الله أن المصاب بحرق الجنة هو أمر أعظم وأشد من مجرد فقدان جنة عادية، ثم أضاف تعالى قوله: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، ليصوّر عناية صاحب الجنة بها، ويعكس اهتمامه الكبير بها، ووصف الجنة بقوله: {لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، ليظهر مدى تنوع ثمارها وجمالها، مما يزيد من شدة حزن صاحبها حينما أصابه الضرر. وقال بعد ذلك عن صاحب الجنة: {وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ}، لأنه عندما يكبر الإنسان، تزداد عنايته بممتلكاته، ويشعر بعجزه عن العناية بها كما كان في السابق، ثم أضاف بقوله: {وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ}، ليبين مقدار تعلق صاحب الجنة بها من أجل أطفاله الضعفاء الذين لا يملكون القدرة على تعويضها. بعد هذه التفصيلات في وصف الجنة وصاحبها؛ جاء ذكر المأساة حيث قال تعالى: {فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ}، وهو من أشد الظواهر الكونية التي تدمر الجنّات. ولم يقتصر على ذكر الإعصار بل أضاف قوله: {فِيهِ نَارٌ}، ليصف الإعصار بأنّه من أكثر الأعاصير تدميراً. واختتم الله تعالى المأساة بقوله: {فاحتُرقت}، ليظهر تمام التدمير والدمار الذي أصاب الجنة، وتحولها إلى رماد. وهكذا حال من يتبع صدقته بالمن والأذى، فتتحول أعماله الصالحة إلى شيء (52)

ولو اقتصر سبحانه على ذكر الإعصار لكان كافياً، لأنّه كفيل بخرابها، لكنّه جعل فيه نار، ثم أخبر باحتراقها احتراساً حتى لا يظن أن النار ضعيفة لا تستطيع تجفيف كل أوراقها وثمارها، وهذا أحسن استقصاء وأتمه بحيث لم يبق في المعنى المقصود موضع استدراك (53).

ومنه قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (54).

الشاهد في هذه الآية في طلب سيدنا إبراهيم عليه السلام الرزق للمؤمنين تحديدأ من سكان مكة في قوله تعالى : (وارزق أهله من الثمرات من آمنهم بالله واليوم الآخر).

في هذا الطلب من سيدنا إبراهيم عليه السلام يوجد مقصدان رئيسيان وفقاً لتفسير المفسرين:

المقصد الأول: أن إبراهيم عليه السلام خص المؤمنين في دعوته بالرزق، حرصاً منه على نشر الإيمان بينهم. إذ إذا علم المؤمنون أن الدعوة مقتصرة عليهم، فإن ذلك سيحثهم على الحفاظ على إيمانهم، ويكون الإيمان شرطاً لتحقيق الرزق. وبالتالي، فإن هذا الشرط يصبح دافعاً لهم للثبات على الإيمان، ولا يوجد في قوله أي تعارض أو تحفظ.

المقصد الثاني: أن إبراهيم عليه السلام قد استفاد من درس ربه له عندما سأل عن الإمامة لذريته، حيث أجابه الله في قوله: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}. وفي هذا الدعاء، يراعي إبراهيم عليه السلام ما علمه ربه، فيحرص على استثناء المؤمنين من الرزق، ويشترط إيمانهم بالله واليوم الآخر. فهو يتبع الأدب الذي علمه إياه ربه، ويبين في دعائه شرطه بوضوح. وعندما سكت عن جزء من الدعاء، جاء الجواب من الله ليكمل التفسير، موضحاً مصير الكافرين، حيث قال: {وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

المطلب الخامس: التذييل :

معظم العلماء ضبطوا حد التذييل بقولهم : " أن يُذيل المتكلم كلامه بجملة يتحقق فيها ما قبلها من الكلام ، وتلك الجملة على قسمين :

قسم لا يزيد على المعنى الأول، وإنما يؤتى به للتوكيد والتحقيق.

وقسم يخرج المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله.

وإما أن يكتفي بما يتضمن من زيادة المعنى .

والفرق بينه وبين التكميل أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال، ولا كذلك معنى التذييل" (55).

ومنه من عدّه والترادف شيئاً واحداً، ولذا ذكر السكاكي أنّ للتذييل في الكلام مكانة عظيمة وأهمية كبيرة؛ إذ يُسهّم في توضيح المعنى وزيادة وضوح المقصد. وقد قال بعض البلغاء: "البلاغة تتجلى في ثلاثة مواضع: الإشارة، والتذييل، والمساواة"، أما التذييل فيتمثل في تكرار الألفاظ المترادفة التي تحمل المعنى ذاته، وذلك بهدف توضيح المعنى لمن لم يستوعبه، وتأكيد المعنى لمن قد فهمه. وهو في هذا السياق ضدّ الإشارة أو التلميح. وينبغي استخدام التذييل في المواضع التي تجمع بين فئات متنوعة من الناس، كالذين هم بطيئون الفهم أو بعيدو الذهن، وكذلك أولئك أصحاب العقول الثاقبة والأذهان السريعة. فعندما تتكرر الألفاظ على المعنى نفسه، تتأكد الفكرة في الذهن، ويصبح المعنى أكثر رسوخاً في الأذهان المختلفة، سواء كانت حادة أو بطيئة (56).

وبالنظر إلى النماذج المشتمة على التذييل وكما ورد في حده يتبيّن أنّ التذييل ليست إعادة للألفاظ وإنما هو جملة أو جمل إضافية يُذيل بها الكلام السابق لتوكيد وتحقيقه، وليست إعادة ، ولا بدّ فيه من التناسب بين الجملة أو الجمل السابقة وبين المُذيل بها.

وهو كثيرٌ وشائعٌ في القرآن الكريم وفي سورة البقرة على وجه الخصوص، فقلّ أن تُختم آية دون أن تُذيل بما يناسب المذكور، إن كان هذا التذييل لمجرد التوكيد والتقرير أو ما كان من النوع الثاني الذي يُخرج مخرج المثل، وفي كلا النوعين تقرير وتحقيق وتوكيد.

ومن أمثلة التذييل قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} (57).

فقلّ له : (والله رؤوف بالعباد) تذييل للجملة التي قبله، ومناسبة هذا التذييل للجملة أن المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله وجعلوا أنفسهم عبيداً له، وعليه

فإن الله رؤوف بهم كما يكون الإنسان رؤوفًا بعبده. فإذا كان ما سبق ذكره عامًا يشمل كل من بذل نفسه لله، فالمعنى أن الله رؤوف بهم، وقد عدل عن الإضمار إلى الإظهار ليكون هذا التذييل كأنه مثل مستقل بذاته، وهو من خصائص التذييل. وهذا يدل على أن سبب الرأفة بهم هو أنهم جعلوا أنفسهم عبادًا لله. أما إذا كان المقصودُ بـ (من) صهيبيًا رضي الله عنه، فيكون المعنى أن الله رؤوف بالعباد الذين هو منهم. والجملة تبقى تذييلًا على أي حال، والمناسبة هنا أن صهيبيًا كان عبدا للروم، ثم لعبيد من قريش وهم بنو كلب، ولم يرأفوا به حين عذب في الله، ولكن لما أصبح عبدًا لله؛ رأف به الله⁽⁵⁸⁾.

ومن هذا النوع قوله تعالى : {أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (59).

في قوله تعالى : (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ) قيل المقصود بالخطاب هم أهل الكتاب وذلك لما ورد في قوله تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً} (60).

وقيل هم مشركو العرب وذلك لما ورد في قوله تعالى : {وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه} (61)، وقيل : سألوه أن يجعل الصفا ذهباً (62).

وفي التناسب بين قوله تعالى : (أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ..)، وبين قوله : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان..). ذكر ابن عاشور أنه عند ذكر جملة بعد جملة، يفهم وجود صلة بينهما، وعندما لا يكون هناك تناسق واضح بين مدلول الجملتين، يعلم المخاطب أن هناك مناسبة يرمز إليها المتحدث. في هذه الحال؛ يفهم أن الارتداد عن الإيمان إلى الكفر هو معنى عام يشمل السؤال الذي طرحه هؤلاء القوم على الرسول، وهو مشابه لما فعله بنو إسرائيل مع موسى. وعليه يمكن اعتبار هذا الفعل كفرًا، وهو المعنى الذي يعبر عنه التذييل الذي جاء في باب الإطناب. في هذا السياق، إذ التذييل هو أن تأتي جملة تعقب الجملة السابقة وتشمل مضمونها، مما يساهم في تعزيز مضمون الجملة الأولى وإضافة فائدة جديدة تتعلق بها. ويُعدُّ التذييل نوعًا من الإطناب؛ حيث يوضح معنى الجملة الأولى

ويزيد عليه بفائدة إضافية، ومن أبرز أشكال الإطناب هو ما يُخرج مخرج الأمثال، إذ يتسم بالعموم في الحكم والاختصار في اللفظ، كما في هذه الآية (63) .

ومما جاء منه قوله تعالى : { زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } (64) .

قوله تعالى: {والله يرزق من يشاء} هو تنذيل يهدف إلى تعظيم وتشريف المؤمنين في يوم القيامة. فالتنذيل لا بد أن يكون مرتبطاً بما قبله، مما يجعل السامع يدرك من خلاله معنى محذوفاً، تقديره: (والذين اتقوا فوقهم فوقية عظيمة لا يمكن وصفها)، لأن هذه الفوقية هي هبة من فضل الله، وفضل الله لا حد له. كما أن السخرية التي كان يبديها الكفار تجاه المؤمنين، خاصة فقراءهم، بسبب قلة ما لديهم، كانت سخرية جائرة. أما فيما يتعلق بالحساب، فهو هنا يشير إلى تحديد مقدار الرزق، حيث إن نفي الحساب يعني نفي معرفة مقدار هذا الرزق. هذه الكناية شائعة في كلام العرب، كما في قولهم "يعدون بالأصابع" للدلالة على القلة، أو قولهم "شيء لا يُحصى" للإشارة إلى ما لا يمكن تحديده، وبالتالي يصح نفي الحساب هنا في سياق أمر لا يمكن حسابه، مثل الفوقية التي منحت للمؤمنين (65).

ومن ذلك قوله تعالى : { إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ } (66).

قوله: (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم)؛ التنذيل الوارد بعد الحث على السعي بين الصفا والمروة، والذي جاء بمفاد قوله: {من شعائر الله}، يهدف إلى تقديم حكم عام يشمل جميع أفعال الخير، سواء كانت فرائض أو نوافل، أو حتى النوافل فقط. فالمقصود بكلمة {خيراً} هنا ليس السعي على وجه الخصوص، لأن كلمة {خيراً} نكرة في سياق الشرط، ما يجعلها شاملة ومعممة. ولذلك، تمَّ عطف الجملة بالواو بدلاً من الفاء، حتى لا يقتصر الخير على السعي

بين الصفا والمروة فقط، بخلاف قوله تعالى في آية الصيام في قوله : {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ} (67) لأن المقصود هنا هو بيان أن الصوم مع وجود الرخصة في الفطر يُعدُّ أفضل من تركه، أو أن الزيادة على إطعام المسكين تُعدُّ أفضل من الاكتفاء به فقط (68).

المطلب السادس : الاعتراض :

ومن شواهد هذا النوع من الإطناب قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَفْرُسُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (69). فجاءت عبارة (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) معترضة بين قوله تعالى : (فأتوهن من حيث أمركم الله) وقوله : (نساؤكم حرث لكم)، وهما متصلان معنى؛ لأنَّ القول الثاني بيان للأول، وجاءت العبارة الاعتراضية بهدف الحث على التحلي بالطهارة، والابتعاد عن الإتيان من الأدبار، مع التأكيد على ضرورة التوبة من هذا الفعل الذي ربما كان شائعاً بين بعض الأزواج قبل أن يوضح القرآن الكريم الحكم الشرعي فيه (70).

ومنه قوله تعالى : {فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} (71)، قوله : (ولن تفعلوا) تعدُّ هذه الجملة اعتراضاً فلا تعلق لها بالإعراب، وهي تحتوي على تأكيد المعنى بشكل واضح، لأنه عندما قال: {فإن لم تفعلوا}، وكان معناه النفي في المستقبل مخرجاً على أنه أمر ممكن، فإنه أضاف أن ذلك لن يحدث، وهو إخبار بالصدق. وعليه جاء ذلك لتأكيد أنهم لن يتمكنوا من معارضته. كما أن اقتران الفعل بـ"لن" يميز جملة الاعتراض عن جملة الحال، حيث لا يمكن أن تدخل "لن" على جملة الحال. واستخدم النفي بـ"لن" بدلاً من "لا"، رغم أنهما متماثلتان في نفي المستقبل، لأن "لن" تحمل

توكيداً وتشديدًا. فمثلاً، عندما تقول لصديقك: "لا أقيم غداً"، وإذا أنكرك، تقول: "لن أقيم غداً" (72).

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (73)، فقوله: {والله مخرج}، هو جملة ابتدائية اعتراضية جاءت بين الكلامين، وفائدتها تأكيد المعنى في نفوس السامعين، وذلك بأن تدافع بني إسرائيل في قتل النفس لن يفيد في إخفائه أو كتمانها، لأن الله تعالى هو مظهره، وهو عليم بكل خفي (74).

ومن ذلك قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ} (75)، فقوله: سبحانه معناه "تنزهه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعثره نقص بوجه من الوجوه" (76).

فاعترضت (سبحانه) بين قوله: وقالوا اتخذ الله ولداً، وبين قوله: بل له ما في السموات والأرض، لتنزيه الله سبحانه وتعالى عما نسب إليه .

القسم الثاني : البسط :

يتجلى هذا الأسلوب في أن يعتمد المتكلم إلى معنى يمكن التعبير عنه بألفاظ قليلة، لكنه يختار أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة، بهدف تضمين الكلام معاني إضافية تزيده جمالاً وثراءً، وهي معاني لا يمكن تحقيقها إلا من خلال هذا التوسع في الألفاظ (77).

فهو يكون بتكثير الجمل وبسط المعاني، واستعمال كلام طويل دون أن تكون فيه ألفاظ زائدة .

ومما ورد في سورة البقرة من هذا النوع قوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ⁽⁷⁸⁾، حيث ترك الإيجاز هنا يعود إلى تفضيل ترجح وقوع أي أمر محتمل على عدم وقوعه، وهذا يتجلى في الآيات الموجهة للعقلاء، ليس فقط مع بني الإنسان بل مع الثقلين جميعاً، وليس مع جيل واحد بل مع جميع الأجيال على مرّ العصور، مع العلم بأن هذا المعنى يتناول انقراض الدنيا. وفي هذا السياق، نجد من بين أولئك الذين يرتكبون التقصير في مجالات النظر والعلم بالصانع، فئات من الغواة. فبالنظر إلى هذا، أي مقام للكلام يمكن أن يكون أحقّ بالتوسع والشرح من هذا؟⁽⁷⁹⁾.

ومن ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ⁽⁸⁰⁾، فإنّ المعنى الذهني للتعبير يتركز على فكرة حسابية حيث تتضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة، ولكن المشهد الحي الذي يرسمه التعبير أوسع وأجمل وأكثر تأثيراً في المشاعر والضمائر. إنه يعرض مشهد الحياة المتجددة والنماء المستمر. في هذا المشهد، يتم توجيه الضمير البشري نحو البذل والعطاء، حيث لا يتوقف الإنسان عن العطاء بل يكافأ بالزيادة بدلاً من النقصان. تسير موجة العطاء والنماء بلا توقف، بينما تتضاعف المشاعر التي أثارها مشهد الزرع والثمار. فالله يضاعف لمن يشاء، مضاعفة لا تحكمها حدود أو حساب.

ففي هذه الآية ضرب الله مثلاً لمضاعفة الأجر للمنفق بمضاعفة الزرع، وهذا المعنى لا يؤدي الغرض المنوط به إذا لم يبسط القول فيه؛ فهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، وفيه إشارة إل أنّ الأعمال الصالحة ينمّيها الله عزّ وجل لأصحابها كما يُنمّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة⁽⁸¹⁾.

ومنه قوله تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ⁽⁸²⁾ في هذا، وما شابهه،

تفصيل دقيق وتعداد كامل للأنبياء الذين يجب الإيمان بهم، وكذلك الكتب التي أنزلت عليهم، وذلك بآتم وأبلغ وجه. ولو كان قد أثر الإيجاز، لقال: "أما بالله وبجميع رسله وما أوتوا"، لكنه اختار أن يطيل في البيان بهذا التفصيل العجيب، لما في ذلك من الوفاء التام بالإيمان بالله ورسله، وما يتضمنه من ذكر هذه التفاصيل المؤكدة التي تساهم في تعزيز المعنى (83).

ومنه قوله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (84)، لم يؤثر الإيجاز وهو: "واتقوا يوماً لا خلاص عن العقاب فيه لكل من جاء مذنباً"، لأنه كان كلاماً موجهاً للأمة كافة، بغرض نقش صورة ذلك اليوم في ضمائرهم. ففي الأمة يوجد الجاهل والعالم، المعترف والجاحد، المسترشد والمعاند، والفاهم والبليد. وكان المقصود أن لا يقتصر المطلوب منهم على فهم فئة دون أخرى، وأن يكون الكلام شاملاً لجميع المستمعين بحيث يناسب كل قوة عقلية ودرجة فهم، ويؤثر في ضمير كل فرد منهم (85).

الخاتمة :

وفي نهاية البحث نذكر النتائج التي توصلت إليها الدراسة، وهي على النحو التالي :

1- الإطناب من الموضوعات المهمة في الدرس البلاغي، فهو لا يعني زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة كما يفهم من حديث بعض القدامى عنه، وليس القصد منه إفهام الغبي الذي لا تصل المعاني إليه إلا عن طريق تلك الزيادة، بل القصد منه - كما يرى البلاغيون - الوصول إلى غرض معين لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق هذه الزيادة المتعمدة المحمودة.

2- اشتملت سورة البقرة بصورة عامة على الكثير من أساليب الإطناب التي تؤدي بطرائق مختلفة لاختلاف الغرض المنوط بها في كل أسلوب.

3- من أكثر أنواع الإطناب وروداً في سورة البقرة التكرار والتذييل ، إن كان التكرار لتوكيد المعنى وتقديره، أو لارتباط كل أسلوب منها بفائدة تختلف عما ارتبطت به الأخرى. أما التذييل فغالباً ما تُذيل الآيات بجملة تتناسب مع الجملة أو الجمل السابقة لتوكيد المعنى وتحقيقه .

4- كذلك اشتملت سورة البقرة على الكثير من الآيات التي بُسّطت فيها المعاني ولم توجز؛ وذلك لأنّ بعض المعاني لا تؤدي الغرض المنوط بها ما لم يبسط القول فيها، ولأنّ بعضها معنيٌّ بها العباد كافة فلا يصلح إيجازها لئلا يختص المطلوب منها بفهم أحد دون أحد، ولا يناسب قوة سامع دون سامع .

هوامش البحث:

- 1/الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص 190
- 2/ انظر: الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، ص : 40 .
- 3/انظر مقاييس اللغة، ابن فارس، 3/426.
- 4/العين، الخليل، باب الطاء والنون والباء.
- 5/المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، 2/280.
- 6/ سورة الأحزاب ، الآية (4).
- 7/سورة الحج ، الآية (46).
- 8/ سورة التوبة ، الآيتان : (44 ، 45).
- 9/انظر المثل السائر 2/281 – 291.
- 10/ سورة الحجر ، الآية : (66) .
- 11/سورة آل عمران ، الآية : (104) .
- 12/سورة نوح، الآية : (28).
- 13/ البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَكَة الميداني، 2/80 .
- 14/سورة النحل، الآية : (57) .
- 15/سورة الفتح، الآية : (27) .
- 16/السنن الكبرى: أحمد بن شعيب النسائي، 8/246.
- 17/ تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع العدواني ، 1/248.

- 18/ الصناعتين ، ص 373 .
- 19/ الإيضاح في علوم البلاغة ، جلال الدين الخطيب القزويني، 196/3.
- 20/ سورة البقرة ، الآية (127).
- 21/ الكشاف، الزمخشري، 188/1.
- 22/ سورة البقرة ، الآية : (196) .
- 23/ انظر مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازي، 311-310/5.
- 24/ سورة البقرة، الآية (49).
- 25/ انظر مفاتيح الغيب، 504/3.
- 26/ سورة البقرة ، الآية (238).
- 27/ انظر التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، 467/2.
- 28/ انظر النكت والعيون، الماوردي، 309/1.
- 29/ مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي، ص: 85.
- 30/ سورة البقرة ، الآية (98).
- 31/ جامع البيان، محمد بن جرير الطبري ، 302./2
- 2/ سورة البقرة ، الآية : (30).
- 33/ سورة البقرة ، الآية : (197) .
- 34/ إعراب القرآن وبيانه : محيي الدين درويش ، 294/1
- 35/ سورة البقرة ، الآية : (151) .
- 36 / صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني ، ص : 95 .
- 37/ سورة طه ، الآية : (113) .
- 38/ سورة غافر ، الآيتان : (39.38) .
- 39/ الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، 224/3.
- 40/ سورة البقرة ، الآيتان : (149 ، 150) .
- 41/ سورة البقرة ، الآية : (144).
- 42/ تفسير الرازي ، 118/4 .
- 43/فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني ، 181/1.
- 44/ سورة البقرة ، الآية (79) .
- 45/ سورة النور ، الآية (15).
- 46/ سورة البقرة ، الآيات (36 – 38).
- 47/ انظر التحرير والتنوير ، 440/1.
- 48/ سورة البقرة ، الآية (231).



- 49/ تفسير الرازي ، 6/453.
- 50/ انظر تحرير التحرير ، 248 .
- 51/ سورة البقرة ، الآية (266)
- 52/ البلاغة العربية: ، 2/92.
- 53/ انظر تحرير التحرير 1/542.
- 54/ سورة البقرة ، الآية (126) .
- 55/ تحرير التحرير ، ص 387.
- 56/ الصناعتين : ص 373.
- 57/ سورة البقرة الآية : (207).
- 58/ التحرير والتنوير ، 2/274.
- 59/ سورة البقرة الآية (108).
- 60/ سورة النساء ، الآية : 153.
- 61/ سورة الإسراء ، الآية : 93.
- 62/ انظر تفسير الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الراغب الأصفهاني ، ص : 290.
- 63/ التحرير والتنوير : 1/667.
- 64 سورة البقرة ، الآية : (212).
- 65/ التحرير والتنوير ، 2/298.
- 66/ سورة البقرة ، الآية : (158).
- 67/ سورة البقرة، الآية : (184).
- 68/ التحرير والتنوير: 2/64.
- 69 / سورة البقرة الآيتان : (222، 223) .
- 70 / البلاغة العربية ، 2/82.
- 71/ سورة البقرة ، الآية : (24).
- 72/ البحر المحيط في التفسير: أبو حيان الأندلسي ، 1/174.
- 73/ سورة البقرة ، الآيتان : (72، 73).
- 74/ الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة العلوي ، 2/91.
- 75/ سورة البقرة، الآية (116) .
- 76 /تفسير السعدي : عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص 64.
- 77/ تحرير التحرير ، ص 544.
- 78/ سورة البقرة ، الآية (164).
- 79/ مفتاح العلوم: يوسف السكاكي، ص 281.

80/سورة البقرة ، الآية (261).

81/انظر تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، 1/691.

82/سورة البقرة، الآية (136).

83/الطراز ، 3/177.

84/سورة البقرة، الآية (48).

85/مفتاح العوم ، ص282.